# الحب والسحـر

إنتهى من فرش شقته – أو حجرته إن أردت الدقة – لأنها كانت مكونة من حجرة متوسطة الحجم وردهة صغيرة , وكان الأثاث فى غاية البساطة كذلك لا يعد الفراش الخشبى الصغير وخواناً يستعمل مائدة للطعام ومكتباً للمذاكرة وكرسياً وصندوقاً لحفظ الملابس والكتب ومسطرة مدرسة الصنائع المعروفة بطولها. وهذه الشقة هى الطابق الأول لمنزل صغير مكون من طابقين متماثلين بحارة دعبس بالواياية . هداه إليه أهل الخير , فوجده صالحاً لتلميذ مثله بمدرسة الصنائع ومن أسرة ريفية متوسطة الحال بقليوب , واكترى الشقة بخمسين قرشاً بعد أن رفضت صاحبة البيت تخفيض مليم من أجرتها ...

واستقبل الحياة فى البيت الجديد بنفس راضية , وعلم أن صاحبته تدعى (( أم فردوس )) , وأنها أرملة أسطى عربجى كارو ولكنها تعيش الآن من أجرة شقته وما تربحه من بيع مواد السمنه : كالمفتقة والمغات وبعض التركيبات الأخرى ؛ ثم هدايا الأسر التى تعمل بها : ((كبلانة)) أو (( خاطبة)) . وكانت امرأة قصيرة بدينة قوية البنية , تصبغ شعرها بالحناء , وتملأ ساعديها بالأساور الذهبية ؛ وكانت قسماتها مقبولة , ولكن صوتها خشن جهورى , السبب أهون ما يقذف به مما جعلها مرهوبة الجانب فى الحي كله. وتساءل منذ اليوم الأول لإقامته فى البيت : ترى هل لأم فردوس بنت تدعى فردوس حقاً؟... وأين هى ؟ هل تقيم معها فى البيت أم أنها فى بيت زوجها ؟... وربما كان الباعث على السؤال حب الاستطلاع ليس إلا , وعلى أية حال جاءه الجواب سريعاً, ففى صباح أحد الايام , وكان يهم بمغادرة شقته إلى المدرسة سمع وقع أقدام خفيفة فصوب بصره إلى أعلى السلم فرأى فتاة فى السادسة عشر مرتدية مريلة المدرسة الزرقاء تهبط فى تؤدة حاملة حقيبتها , فانتظر حيث هو موسعاً لها الطريق , وقد إلتقى بصره ببصرها وهى تعاينه بعين يعلوها الارتباك ولما حاذته خال أنه سمعها تحييه بصوت خافت قائلة (( صباح الخير )) ... فقال لها بلهجته الريفية القحه (( صباح الخير )) ثم تبعها على مهل حتى خلصا إلى الطريق , ولم تلتفت الفتاة إلى الوراء , ووضعت حقيبتها على خاصرتها وأحاطتها بذراعها ومضت ... ترى هل تكون الفتاة فردوس بنت أم فردوس؟ ... رجح ذلك مستدلاً بتحيتها له , وعلى أية حال كانت الفتاة خمرية اللون , سوداء العينين والشعر , ناهدة الثديين ... فبدت لعينيه الريفيتين آية من الحسن , وكان يتمثل فردوس من قبل كأمها : غليظة تسعى فى الأسواق ملتفة بالملاءة اللف , فإذا يجدها تلميذة لطيفة تسر الناظرين ... فجرت ابتسامة على شفتيه الغليظتين , وولول قائلاً بلهجته الريفية : (( وى وى يا بوى)) ... ولذ له أن يعيش فى بيت واحد مع هذه الفتاة الجميلة , ولكنه كان

قليلاً ما يسعد برؤيتها بخلاف أمها التى كانت تقوم بتنظيف شقته , وتجالسه فى أوقات الفراغ , وتحدثه – بمناسبة وبغير مناسبة – عن شئون مختلفه وعن أناس كثيرين من الجيران , وقد ساق الحديث يوماً إلى ناحيته فسألته عن أسرته ومستقبله وصارحها الشاب بأنه من أسرة سيدهم !... وإنه يمتلك فدانين وعدداً من القراريط وجاموسة , وأنه التحق بمدرسة الصنايع بعد أن قضى ثلاث سنوات بالمدرسة الثانوية وقال لها فى شئ من المباهاة أنه سيكون يوماً ما مهندساً وأصغت المرأة إليه بإهتمام وإنتباه وكانت تتمثل الفدانين والجاموسة والمهندس الشاب وتختلس منه نظرات عميقة تدل على الحذر والدهاء ... ثم دعت له دعاء طيباً بصوتها الآجش ... وسارت الحياة على وتيرة واحدة ولم يكن يغير من رتابتها إلا سفره كل أول خميس من الشهر إلى قليوب حيث يبيت ليلته ويعود مساء الجمعة حاملاً معه بيضاً وفطيرا وذبدة يهدى إلى أم فردوس منها نصيباً معلوماً ...

وفى يوم من الأيام وكانت المرأة تجالسه خاطبته برجاء قائلة :

- والنبى يا سى حمادة تفهم فردوس الحساب لأنها ضعيفة فيه وابتهج الشاب بالدعوة أيما ابتهاج . ولم يكن الأمر سهلاً كما يبدو لأنه كان نفسه ضعيفاً فى الحساب وكان بينه وبينه ثأر قديم منذ اليوم الاول الذى اضطره فيه إلى اليأس من الاستمرار فى المدرسة الثانوية وإجباره على إختيار مدرسة الصنائع بدل المدرسة الحربية التى كان على استعداد لأن يجود فى سبيل الالتحاق بها ببيع الفدانين والجاموسة . ولكنه قبل الدعوة دون تردد وصعد إلى شقة أم فردوس , ووجد الفتاة وكأنها فى إنتظاره وكانت ترتدى فستاناً أنيقاً , وترسل شعرها الأسود فى ضفيرة طويلة جاوزت ردفيها . فقامت لتحيته وجلسا تفصل بينهما مائدة وضعت عليها كراسة الحساب , وقالت لها أمها : إن ((حمادة أفندى قبل أن يدرس لها الحساب)) وجلست معهما برهة ثم خرجت إلى الردهه لأعمالها التى لا تنتهى , وكان الدرس شاقاً على المعلم والتلميذة على السواء , ولكنه لم يرض بالهزيمة وإفلات الفرصة السعيدة من بين يديه فشرح لها الدرس على قدر فهمه . وكان إذا غلبه الارتباك نظر إليها وسألها قائلاً : (( فاهمة؟ )) فتهز رأسها بالإيجاب سواء كانت فاهمة او غير فاهمة . ووجد حمادة فى هذه الدروس فرصة جميلة للاجتماع بفردوس , وكان يجذبه إليها مثلما يجذب فتى مثله فى فورة الشباب إلى فتاة فى نضوجها وحسها إنطوى عليهما بيت واحد , وربما كانا معاً يكابدان هذا الشعور الطبيعى ولكنها لم يتقدما فى علاقتهما عن أول يوم التقيا فيه لأن الشاب كان ريفياً ((خاماً))وكان يقنع بأنه يقول لها صباح الخير أو مساء الخير وهو يحدجها بنظرة ذات معنى كأنها تتوسل إليها أن تفهم , أو أن يضغط على يدها إذا مدتها إليه بالسلام . وكان كثير الحذر

فى التعبير عن شعوره خشية أن تتنبه إليهما أم فردوس لأنه كان يتوهم أنها لم تتنبه إليهما بعد ...

واطردت الأيام وهو جد سعيد بحياته , حتى كان صباح جمعة , وكان من عادته أن يمضى صباح الجمعة خارج البيت إلى ما بعد الصلاة ؛ وكان يقطع حارة دسوقى فى طريقه إلى شارع الملك فالتقى بأم بخاطرها الغسالة وهى ملتفه فى ملاءتها القذرة كغرارة الفحم , وكانت تغسل له ثيابه ثم انقطعت على أثر شجار قام بينهما وبين أم فردوس تبودل فيه القذف والسب وشد الشعر والبصق وحركات أخرى غاية فى الغرابة , فأقبلت المرأة عليه وحيته وقالت :

- يا سي حماده أنا أرغب فى مقابلتك منذ زمن طويل فالحمد لله الذى أراد بك كل خير ... تعال أحدثك حديثاً يهمك ... وانتبذت به مكاناً خالياً من الحارة ثم استدركت تقول :

- أنت شاب طيب القلب لا تدرى من أمور الدنيا شيئاً فاحذر هذه المرأة ... أم فردوس داهية شريرة تجد منذ زمن طويل الإيقاع بك ...

فبوغت الشاب بهذا القول وأخذه العجب وسألها فى ارتباك ظاهر : (( أى إيقاع بى تعنين ! ))

فقالت الرأة وهى تخافت من صوتها :

- إبنتها ؟ ... ألا تفهم ؟ ... إبنة العربجى ... فردوس التى تسير فى الطريق عارضه ردفيها وساقيها لكل من رأى , فلا هى من مقامك ولا من مقام أسرتك وأنت الحسيب النسيب مالك الفدادين ... فاحذر ثم احذر , إنها تحتال عليك مستعينة بالشياطين وسكتت المرأة ريثما تستريح وجعلت تلحظ الشاب وتقرأ الدهشة المرتسمة على وجهه بارتياح ثم ادنت رأسها من رأسه غير مشفقة عليه من رائحة رأسها ونكهة فمها واستطردت تقول :

- لقد أخذت منديلك خفية وأعطته للشيخة زهية وأعطت قميصك للشيخ لبيب وأنت لا تدرى شيئاً والسحر فى فعله , والبخور فى عمله , وأرواح الشياطين تطوف ليل نهار.

فتبدى الخوف على وجه الشاب وعبس وجهه ... ولم يكن خالى الذهن من هذه الامور , ولا كان ممن يستهينون بها فساوره القلق وتسائل متجاهلاً عواطفه مظهراً عدم إكتراث .

- وما عسى أن يعنى هذا ؟

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :

- هذا يعنى كل شئ يا مسكين ؛ هذا الذى أوقع المرحوم الأسطى شلبى من قبل . وعلم أنها دخلت فى العميق , وحصلت على حجاب رهيب دسته تحت حشية سريرك , وحفظت ابنتها كلاماً سحرياً مخيفاً تتلو صباح كل جمعة على فراشك وهى تثابر على ذلك أسبوعاً بعد أسبوع , فأفسد عليها عملها الشيطانى , وأنج بنفسك ... والآن وقد حذرتك , فإنى تاركتك لحكمتك والله يلهمك الصواب ...

وسارت المرأة فى سبيلها , ولبث هو فى مكانه لا يريم عنه متفكراً قلقاً يعجب لتلك الأمور الجليلة التى تدور من حوله وهو عنها غافل ... رباه ! أسحر وبخور وشياطين ؟! ... أكل هذا ليتزوج من فردوس ؟ وكان بغير شك قلقاً خائفاً ولكنه أحس لذة خفية وفخاراً , ثم تساءل : هل يستمر فى طريقه أم يعود إلى البيت ليرى بنفسه ما يحدث فى غرفته ؟ وولى وجهه شطر حارة دعبس دون تردد فبلغ البيت بعد زمن قصير وكانت النوافذ مغلقة والباب مواربا كعادته فدخل بهدوء لا يحدث صوتاً ورأى باب شقته مغلقاً , ترى هل هو مغلق بالمفتاح ؟ وهل فردوس حقاً بالداخل ؟ ثم صعد بصره إلى أعلى السلم وأدار الأكرة بخفة ودفع الباب فى حذر فانفتح , فخفق قلبه وقال لنفسه إن أم فردوس لا تترك الباب هكذا إذا لم يكن أحد بالداخل , ثم دخل ورد الباب بهدوء , وهنا أقتحمت أنفه رائحة بخور جميلة مخدرة فانتفض رعباً وتمتم بصوت غير مسموع قائلاً : (( أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم )) ولكن شغفه تغلب على خوفه فتقدم بخفة كأنه يسير على حبل فى ملعب ووضع أذنه على باب الحجرة فلم يسمع حركة ولا نأمة فأنحنى حتى استطاع أن ينظر إلى الداخل من خصاص الباب فرأى دخان البخور تتصاعد سحائبية فى هدوء إلى سماء الغرفة , واستطاع أن يرى سريره بوضوح ... رباه ... لم يكن خالياً ... كانت فردوس تتربع عليه فى ثوب أبيض ناصع البياض متلفعة بخمار أبيض كذلك كأنها على وشك الصلاة , ورآها تضع على كفها رسالة مطوية تستغرق فى النظر إليها وتحرك شفتيها حركة منظمة كأنها تتلو آية ؛ ولبث ينظر إليها فى سكون ودهشة وكان يجد قلقاً غريباً , ولكنه لم يشعر بغضب أو سخط بل جمل يراقبها أخيراً فى شغف ثم رأها تثنى حافة المرتبة وتضع ما بين يديها تحتها ثم رآها تتمدد على ظهرها فى هدوء وهى تظن أنها بمأمن من الرقباء وتسحب الوساده وتضعها عليها بالطول , ثم احتضنتها بيديها وكأنما راحت فى سبات عميق , وراقبها بعينين دهشتين وراح يتساءل أكل هذا حقاً من أجلى أنا ؟! ... أكل هذا لكى تتزوج منى أنا ... وإطمأن إلى المنظر الغريب ووجد فى مراقبته لذة لا تعادلها لذة ؛ وأحس تخديراً ود لو لم يصح منه أبداً . وتدفق الحنان من حفاياه فتمنى لو يحتويها فى تلك اللحظة بين يديه ... ثم رآها تزيح الوسادة عنها وتعيدها إلى مكانها وتعتدل جالسة ثم تهبط إلى الارض وتميل إلى

المبخرة لترفعها فتوقع أن تمضى بعد ذلك إلى الباب وأنتبه إلى حاله , فسارع إلى الباب وفتحه وأغلقه بقوة متعمداً أن يحدث صوتاً مسموعاً واتجه نحو الغرفة وهو يصفر صفيراً عالياً فانفتح باب غرفته وبرزت الفتاة وقد علا على وجهها شحوب وارتباك وقالت باضطراب :

- عدت مبكراً ... أنا كنت أنظم حجرتك وأبخر الشقة وأتجهت نحو الباب مهرولة فاعترض سبيلها , وكانت عواطفه المضطربة تشجعه على الاستهانة فقال برقة :

- شكراً , لقد عدت لأنى أحسست بتعب , وأنى لآسف على إزعاجى لك ... استريحى , ولكنها قالت بسرعة ولم تكن أفاقت بعد من أرتباكها

- دعنى أخرج وإلا استبطأتنى أمى

فقال لها وهو يشير إلى الكرسى :

- استريحى قليلاً ... أرجوك أن تمكثى معي هنية فإن لدى ما أقوله لك ...

وكانت عواطفه ثائرة فدفعها برقة نحو الكرسى حتى جلست كارهة , ثم قال لها بصوت متهجد :

- فردوس ! هذه فرصة سعيدة لأنفرد بك وأقول لك ... وأعياه القول فسكت ؛ ولكنه كان يشعر بأنه ينبغى أن يقول شيئاً وإلا لم يجد عذراً ينتحله لإبقائها . فقال بصوت المضطرب :

- أنت جميلة فى الثوب الأبيض ... أعنى أنك فيه أجمل منك فى أى ثوب أخر ... الواقع أنك جميلة دائماً وفى أى ثوب كان ...

فاشتد الارتباك بالفتاة وتضرج وجهها بالحمرار فازدادت فتنة وازداد افتناناً . فلم يملك أن قال لها :

- فردوس ... أنا ... أنا أحبك ... وقد أبقيتك هنا لأقول لك إنى ... أريد أن أتزوج منك

ولم تستطع الفتاة البقاء فقامت واقفة واتجهت نحو الباب ولكنه إعترض سبيلها مرة أخرى وقال لها :

- هل أنت غاضبة ؟ ... صدقينى يا فردوس سأتزوج منك ونظر إلى وجهها بعين فاحصة فلم ير غضباً ولكنه أحس ارتباكها وتعثرها بالخجل فأوسع لها , ولما حاذته هوى بفمه فقبل خدها , ولم تقل له شيئاً , وسارت حتى غيبها الباب , ودخل الشاب إلى حجرته , وجلس على حافة سريره كعادته ؛ ثم دس يده تحت الحشية حتى عثرت بالحجاب , فوضعه

على كفه يديم إليه النظر فى سكون وتهيب , ولم يجسر على فك رباطه فأعاده إلى مكانه , وتفكر ملياً ثم قال وهو يبتسم : (( من يستطيع أن يقول بعد اليوم أن السحر خرافة ؟! ))

أما فردوس فصعدت السلم مسرعة تقفز كل درجتين معاً , ولم تكن أمها فى الشقة , فخرجت إلى الغرفة يكاد يصرعها الفرح وجعلت تروح وتجئ وهى تقول باضطراب :(( يا بركتك يا شيخة زهية ... يا بركتك يا شيخة زهية...!))